

المثل في الآداب السامية

الدكتور محمد عيلان
معهد اللغة العربية وآدابها
جامعة - عنابة -

المعنى اللغوي

يعد المثل من أهم الأشكال الأدبية ، وأكثرها شيوعا وذيوعا بين عامة الناس ، على اختلاف مستوياتهم ومناحي حياتهم ، لما يتضمنه من تجارب وقيم ومواقف يلجأ اليها الإنسان حين تتعقد أمامه الأمور وتتشعب السبل ، ويكون في حاجة الى مواساة نفسه وتعليل أثر المواقف عليه ، فيلجأ الى موروث أجداده متمثلا له ومعزيا نفسه ، وراكنا الى ما تزود به من ثقافة ، فيحس بالراحة والطمأنينة ويسلك مسلك من سبقوه في المواقف المشابهة راضيا أو ساخطا ، أو متتبعا لسبل معينة عبر عنها المثل وسجلها مشيرا الى طريقة الخلاص منها أو الحكم عليها . والأمثال : (عند كل الشعوب مرآة صافية تنعكس عليها عادات تلك الشعوب وتقاليدها وعقائدها ، وسلوك افرادها ومجتمعاتها ، وهي ميزان دقيق لتلك الشعوب في رقيها و انحطاطها ، ويؤسها ونعيمها ، وآدابها ولغاتها) (1)

ولمعرفة نشوء هذا اللفظ ومدلوله في اللغة العربية وتطوره ، لا يسعنا الا العودة الى ما ورد عن أصل الكلمة ومشتقاتها في الآداب السامية ، التي لا تملك عنها من المعلومات الا اشارات أفرزها لنا البحث فيما عثر عليه من آثار الشعوب السامية ، وما ضمنتها كتب العهد القديم من أقوال وإشارات اعتبرتها تلك الشعوب أمثالا ، مما أوحى لنا ما كانت تعنيه كلمة (مثل) في هذه الأسفار وفي غيرها من الوثائق .

والحقيقة أن هذه المعلومات وإن كانت لا تفي بحاجة الدارس إلا أنها قد تثير الطريق ، لإدراك معالم التقارب اللغوي والأدبي ، وأثر ذلك عبر السنين ، وفق عوامل تاريخية وجغرافية متباينة ومتنوعة ، مما له صلة بالإتجاه الحضاري العام لهذه الشعوب ، كما أن هذه المعلومات ستكون حافزا لمعرفة سر تواصل هذا الشكل الأدبي ومحافظة على خصائصه بتواصل الشعوب السامية .

والمفحص لكتب اللغة العربية ومعاجمها منذ بداية توثيق الكلام العربي بأنواعه ، يجدها تذهب مذاهب شتى في توضيح أصل الإطلاق الأول . وكأنني بهم قد أيقنوا أن الكلمة عربية أصيلة ، وأنها لم ترد إلا في اللغة العربية ، لذلك نجدهم يحدون دلالات الكلمة من خلال ما أثر عن العرب في كلامهم مستدلين بالشعر تارة (2) وبالقرآن الكريم والأحاديث النبوية تارة أخرى (3) ولم يحاولوا مقارنة ذلك بما جاء في اللغات السامية .

ولعل المتتبع لهذا الفيض من الشروح للكلمة وأوجه دلالاتها يحس بان هناك تجاوزا عن قصد أو عن غير قصد ، لعدم محاولة البحث عن صلة هذه الكلمة بما أطلق على مثلها في اللغات السامية ، سواء من حيث الإشتراك في الصيغة أو وجودها في التركيب والإستعمال .

وقد كان المستشرقون أبرز من تناول هذه الأمثال والأقوال وتتبعها تاريخيا لتحديد مجالات استعمالها في اللغات السامية ، وتبعهم في ذلك بعض المحدثين من الدارسين العرب على الخصوص ، وبخاصة في مجال علم اللغة المقارن ، الذي كان له أكبر الأثر في معرفة ما كان خافيا عن الباحثين الأوائل من قضايا لغوية ، لها أثرها في كشف حقائق كان غيرها إلى عهد قريب من المسلمات .

ومن هنا نرى أنه من الضروري توضيح معالم مدلول كلمة (مثل) في التراث السامي ، ليتسنى الوصول إلى استقرار مدلولها اللغوي في التراث العربي .

وردت كلمة (مثل) (Masel) في التراث العبري بمعنى : الحكم والسيادة وصفة الحكم نسبت الى الله والى الناس والى الأجرام السماوية ، وفي نسبة الحكم الى الأجرام السماوية ، وردت آيتان في سفر التكوين . 1 : 16 - 18 هذا نصهما : (فعل الله النورين العظيمين ، النور الأكبر لحكم النهار والنور الأصغر لحكم الليل والنجوم ، وجعلها الله في جلد السماء لتتير على الأرض ، ولتحكم على النهار والليل ، ولتفصل بين النور والظلمة) (4) .

ومعنى ذلك أن - المائل - أو - المثل - هو الحاكم والسيد على كوكب الأرض . فكما أن هناك حاكما على النهار هناك حاكم على الليل ، وكلاهما في السماء يتحكم فيما له على الأرض وسكانها . ولا نبعد كثيرا ، فإن عبادة الأفلak كان لها أثر كبير في معبودات البابليين والكلدانيين ، إذ يرونها المتحكمة في الكون ونظامه دون خلل ، ولذلك بنيت لها معابد ، وقد ورد ذلك فيما أثر عنهم من نصوص أو آثار في الطبيعة .

وليس لدينا مما ذكر الا القول بأن المثل : كان يطلق عند هذه الشعوب على الحاكم الذي بيده القوة والسيطرة على الموجودات ، سواء في التراث البابلي أم التراث العبري .

وإذا ما رجعنا الى اللغة الآشورية وجدنا لفظ (مثل Masalu) ينتقل من أصل وضعه وهو الدلالة على الحكم والسيادة الى الدلالة على صفة من صفات الحكم وهو : لمع أو سطع ، وهو ما يقارب أحد معاني (مثل) في اللغة العربية من قولهم : مثل القمر مثولا ، والمائلة : منارة المسرجة ، لا لأنها تنير ، بل لأنها منتصبية ، ولأن مثل معناه : انتصب قائما . كما نص على ذلك كل اللغويين العرب .

الا أن اللغة العربية لاستعمل مادة : (مثل) بمعنى (حكم) بل نجدها استغنت عن ذلك باطلاق كلمة (الحكم) ومشتقاتها للدلالة على ما يفيد السيطرة والحكم ، وخصت لفظة (مثل) بدلالات أخرى .

ووردت كلمة (التمثال) أحد معاني مشتقات مثل ، بمعنى : الشيء المصور المتقن (5) الذي يجسد حقيقة ما . نجد ذلك في العربية وفي غيرها من اللغات السامية ، وهي في مجملها لا تبعد عن معنى الحكم والسيطرة . ذلك أن اللجوء الى

تجسيد الآلهة للبشر ، إنما لتسهيل عبادتها ويسهل الحصول على رضاها . إذ يستطيع الإله بما له من قوة وسيطرة أن يطرد الشر ويزرع الخير بين من يتقربون إليه ، ثم توسع في دلالة كلمة (التمثال) من الدلالة على شبه الإله أو صورته وحضوره ليدفع الأذى الى دلالة أخرى يكون للإله فيها أثر ، بأن يحضر من شخص أو كائن ما صورته أو شبهه أو نظيره مجسدا ثم يطعنه برمح اعتقادا منه بأنه بايذاء تمثال عدوه أو صورته ، يؤدي الى إيذائه غائبا عنه ، بقوة الإله ، وفقا لنظرية : الشبيه يولد الشبيه .(6)

ومن هذه المعاني المختلفة للفظ (مثل) في التراث السامي نجد أن الكلمة قديمة فيه وليست غريبة عنه متفردة ، وأنها ارتبطت بكثير من الدلالات ، منها ما عرفنا ومنها ما عفي عنه الزمن ولم يصلنا شيء منه . وأكثر ما عرف لدينا ارتبط بالإعتقاد الديني للجماعات السامية عبر وجودها الجغرافي ، وانتمائها العرقي والقومي .

كما أن الكلمة حافظت على أشهر دلالات الأطلاق وهو : المشابهة ، سواء في الموضوع أم في الهيئة أم في غيرها ..

فقد دلت في التراث السامي على معنى الحكم والسيطرة أول ما دلت ، ثم دلت على معنى الشيء المادي المصور بمعنى (المثل) أو (المشابهة) يقول ايسفلت في دراسته للمثل في السفر القديم : (المثل) كما يدل عليه أصل معناه في الحبشية : (Mesl) (Messele) والآرامية (Mathla) والعبرية (Mashel) (ماشال) التشبيه والمقارنة . ويوافق بروكلمان على ذلك ويقول : (ان المثل العربي لم يخرج أصله عن هذا المعنى ، لأنه يعتمد التشبيه والمقارنة ، وتطور معناه الأصلي الى أن صار يدل على المثل كما عرفته الجاهلية والإسلام . (7)

أما زلهام فاته يقول : (سمي قدماء الساميين (المثل) باسمه تبعا لسماته الجوهرية أصلا ، وهي سمات المقارنة التصويرية .) (8)

ولعلنا بالرجوع الى اللغة العربية وكشف العلاقة بين الإستعمالات المختلفة لكلمة (مثل) وذلك من خلال المقارنة نتمكن من ادراك ما خفي عنا من معاني كانت شائعة في أخواتها السامية حفظتها اللغة العربية ، بدليل بقاء كلمة (مثل) في اللغة العربية بأصواتها ودلالاتها الى يومنا هذا . كما ظلت تعني في شتى الاستعمالات : المشابهة والمشاكلة .

فقد جاء : المثل (Metal ، Mesl ، Masal) ، بمعنى : الشبه او النظر ، واشتقوا الفعل (Masal) في العبرية ، (Masalu) في الآشورية ، (Masala) في الحبشية القديمة والأمهرية ، (Matal) في الآرامية ، (Metal) في السريانية . وكلها افعال تدل على المشابهة والمشاكلة . (9)

وجاء في القرآن الكريم عديد من الأمثال المتنوعة لحوادث مختلفة ، تعني في دلالاتها على ما تعنيه : المشابهة أو النظر أو المثل - بكسر الميم - ثم ما يراد منها بعد ذلك وفقا للسياق ، وكذلك جاءت الأحاديث النبوية .

ولعل دلالة المشابهة قد استقرت في اللغات السامية وبخاصة اللغة العربية التي حافظت على هذه الصفة للمثل . وعلى هذا يفسر قول الزمخشري في مقدمة كتابه - المستقصى في أمثال العرب - بأن : (المثل في لغة العرب بمعنى المثل كالشبه والشبيه ... ثم سميت هذه الجملة من القول المقتضية من وسلها ، أو الموسلة بذاتها المتسمة بالقول ، المشتهرة بالتداول : مثلا ، لأن المحاضر بها يجعل موردها مثلا ونظيرا

لمض بها .) (10) والمراد أنها في أصل الكلام العربي بمعنى المثل والنظير ، ونقلت من المشابهة في الصورة المادية الى المشابهة في أمور أخرى غير حسية كإحضار صورة الشخص على مستوى الذهن وإيذائه بالكلام الذي لا يليق به أولا يرضى به لو كان موجودا - والهجاء العربي مبني على هذا أيضا - وهو ما يمكن أن نطلق عليه المجاز الذي يقوم على ادراك الصورة ومقابلتها والتعبير عنها بما لا يكون مباشرا مما يكون عماده التشبيه .

واللغة العربية - وهي أرقى اللغات السامية - قد وسعت من مدلول لفظ (مثل) وضمنته معاني كثيرة نورد بعضها منها مختصرا كما وردت في المعاجم العربية (11) التي اشارت الى أنها بمعنى المساواة والتكافؤ والمشاوية والصفة ، وبمعنى القول السائر الذي هو مصطلحه الشائع الى الآن . وهناك معان أخرى خارجة عن هذا النطاق .

المعنى الإصطلاحي

تتضارب الآراء وتتناوب المعلومات حول الأمثال في موروث الشعوب السامية ، ونظرا لقلّة المادة وعدم توفر النصوص ، فقد كانت نصوص التوراة وشروحها وتفسيراتها أكبر مرجع للباحثين المحدثين في الآداب السامية . وبالرغم من اتفاق الباحثين على أن كلمة (مثل) - بمحتواها - وردت في آداب الشعوب السامية ، إلا أنهم يختلفون في مجالات استعمالها والمواضيع التي تكون عنوانا لها .

وإذا ما رجعنا الى أقوال هؤلاء الباحثين وجدنا أن المثل القولي في الإصطلاح السامي يحمل مدلولاً واسعاً ، فقد أطلق الساميون لفظ (مثل) على فنون من التعبير بعضها موجز وبعضها مطول ، أطلقوه على الكلمة الموجزة التي اكتسبت الذبوع والشهرة في الناس ، وعلى الكلمة الجامعة المركزة الدالة على مهارة الصنعة والقدرة على الإلغاز والتعمية ، وأطلقوه على القطعة الأدبية التي قد تبلغ الفقرة والفقرتين من الكلام ، والتي تقص نبوءة من النبوءات ، أو تنزع منزع الأنشودة الشعرية ، أو ترد قياساً ومقارنة لتفسير فكرة ، أو توضيح عبارة أو تحكي قصة خرافية ذات مغزى . (12)

وأمام هذا الإطلاق صعب على الدارسين تحديد أشكال الأمثال وصيغها ومجالاتها ، وهل المثل هو الحكمة ؟ .

والحقيقة أن ما توفر لدينا من معلومات في التراث السامي عن (المثل) واطلاقه يكاد يكون : (الحكمة) . ذلك أن ما عبرت عنه النصوص التي بين أيدينا ، نجدها تتجاوز حدود (المثل) الى (الحكمة) التي تصدر عن وصفوا بالعقل ، الراجح والرأي السديد ، ممن يلقنون الناس تجاربهم ومعارفهم عن الحياة ليس الا

ولعل ما نجده لدى الدارسين من آراء عن المدلول الذي اكتسبه لفظ (مثل) هو اتسام آرائهم بالعموم لقلة المادة ، وفي الوقت نفسه كان بعض منهم متأثرا بما شاع في عصور متأخرة من استقلال كلمة (مثل) بمدلول معين عرف لدى الشعوب .

وبالرغم من ذلك فإننا نجد إشارة الباحثين الى خصائص هذه التعبيرات في كونها تتفق كلها على أن من أهمها استغلال المجاز في التعبير عن الحقائق الشاهدة ، وكانت هذه الخاصية مجالا خصبا لحشد كثير من المواقف والممارسات في كلمة (مثل) ، من ذلك مواقف الكهان وتصرفاتهم ، وقد (كان الكاهن والعراف في اشد الحاجة الى الصورة المجازية ، يجد فيها مجالا للمواربة والإيماء والرمز والإلغاز .) (13)

وفي مجال آخر نجد بعض الدارسين يوردون اطلاق لفظ (مثل) على حكايات قصد منها توضيح بعض الأفكار والبرهنة عليها مثل ما ورد في تعاليم بوذا ، أو تلك القصص التي يرويها الحكماء للظة والإعبار .

وقد يستدلون على وجود المثل وشيوعه في التراث السامي بما كان يرد على لسان حكماء بابل ووصايا احقار الحكيم (14) أو لقمان الحكيم ، وأسفار العهد القديم . (15)

وورد في موسوعة الأديان أن المثل اختلط باللغز (16) لأن : (الشعوب في أولى مراحل ثقافتها كانت مولعة بالالغاز) (17) و(الأمثال) الملعزة منتشرة في الشعوب السامية (18) واستدلوا على ذلك بما ورد في الآثار السومرية ، والآثار البابلية ، خاصة ما ورد في نقوشها كاللغز القاتل : ما الشيء يصير حاملا من غير حبل ، ويصير سمينا من غير أكل ؟ والجواب هو : السحاب . (19)

ويرى الدكتور عبد المجيد عابدين أن (المثل واللغز وثيقا الصلة بالخرافة من حيث أن كلا منهما يستغل المجاز للتعبير عن صور بعيدة عن الواقع ، يلجأ إليها الناس للتعبير عن أفكارهم في صور محسوسة) (20) ولا نبعد عن هذه الآراء كثيرا حتى نجد في النصوص العبرية بأن المثل أطلق على الأناشيد التي كان ينشدها سليمان ، وفي الكتاب المقدس سفر الملوك الأول الإصحاح الرابع : (وتكلم - أي سليمان - بثلاثة الاف مثل) (21) وأما أمثال سليمان فنجدتها في سفر الأمثال بعد الإصحاح التاسع . وأطلق أيضا على بعض المزامير التي تتغنى بالتعاليم الدينية . (22)

وفي خضم هذه الآراء التي ترى بأن المثل أطلق على أقوال الكهان والعرفان ، أو على ما أثر من نقوش في آثار البابليين والسومريين ، أو على القصص الخرافي ، أو على الأفكار التعليمية المدعمة بالبراهين أو العبارات الأدبية المنمقة ، أو على ما ورد في الأدب العبري من أقوال حكيمة في أساسها تدعو الى التأمل واعمال النظر في الكون ، فإنه لايسعنا الا القول بان ذلك مرده انعدام النصوص الكافية .

والأقرب إلينا هو أن (المثل) له أصل في الكلام السامي وأنه كان مستقلا في كلام الساميين ، ويعبر عن تجارب عاشتها المجتمعات ، ولكن عناية الساميين كانت موجهة الى من بيدهم السلطة الدينية والزمنية ، فحفظت أقوالهم وسجلتها باعتبارها أقوالا مقدسة . إذ أنها من جانب تتصل بشعائر دينية تقتضي الحفظ والتقدير ، ومن جانب آخر فهي تعاليم توجه الإنسان في حياته اليومية وفق ماترسمة العقيدة التي وضعتها الآلهة وأوحت بها لتصدر على لسان رجال الدين . وما عدا ذلك ضاع واندثر باندثار أصحابه ، مما له صلة بالفن القولي الذي يتضمن

تجارب مستقاة من واقع حياة الناس وممارستهم اليومية . والمثل في كل ذلك يتفاوت في مدلوله وأنواعه ، ومكانته من اشكال التعبير الرسمية .

ولعل أقرب الآراء على استقلالية المثل بمدلوله عن كل ما ذكره الباحثون ، هو الإشارة الى أنه عني في بعض ما عني : العبارة الموجزة المعبرة عن رأي الشعب الجارية على ألسنة أفراده . أما ما ورد في أسفار العهد القديم خاصة سفر (الأمثال) فانه مما يمكن اعتباره استقلالا ووضوحا لمعالم المثل ، وبداية لمساره بشكله المتعارف عليه لدى كثير من الشعوب السامية ، وبذلك يمكن النظر اليه في آداب الشعوب الأخرى غير العربية . كالعبرية والأمهرية وغيرهما . اذ اننا في العربية لا نعثر له على اشكال صورته وتطورها ، بل نلتقي بالمثل في التراث العربي عن طريق المؤرخين وجامعي اللغة بصورته المعروفة لدينا ، وباشكاله النغوية المتمثلة في الفقرة او الفقرات القصيرة التي تعبر عن تجربة معينة ومحددة ، مع المحافظة على صياغته الأولى ، ليعبر عما يجد من تجارب مشابهة في أي زمان وأي مكان دون تغيير أو تبديل .

بيد اننا بعد هذا كله نجد الباحثين في الأمثال في الآداب السامية يتفقون على أهم خاصية فيه وهي خاصية المجاز واحكام العبارة ، وصياغتها على نحو لغوي يضمن جمالها فنيا ليتجاوز بها حدود الإبتذال ، مما يسهل لها الشيوخ والذيوخ والبقاء لفترة زمنية ليست بالقصيرة ، وهي الخاصية التي ظلت الأساس في بناء المثل وفي تنقله ، كما اننا على ضوء هذه الخاصية يمكن فهم تواصل المثل وانتاجه في اللغات السامية الى يومنا هذا .

المراجع :

- 1 - رودولف زلهاييم - الأمثال العربية القديمة - ترجمة : د، رمضان عبد التواب - مؤسسة الرسالة - القاهرة - ط : 2 ، 1984 ص : 7 من مقدمة المترجم .
- 2 - أورد ابن منظور عن ابن سيدة قول جرير :
والتغليبي اذا تتحنح للقرى حك استه وتمثل الأمثالا
انظر لسان العرب مادة : مثل .

3 - انظر ما اورده عبد الرحمن التكريتي في كتابه : دراسات في المثل العربي المقارن - معهد البحوث والدراسات العربية - بغداد - د/ت - ص : 53/41 .
4 - د، عبد المجيد عابدين - الأمثال في النثر العربي القديم - مع مقارنتها بنظائرها في الآداب السامية - دار مصر للطباعة - القاهرة - ط : 1 - 1956 - ص : 2 .

5 - المرجع السابق - ص : 2 .

6 - هذا معتقد قديم قدم البشرية ، بل ويرجع الى طفولة البشرية ، والدراسات في هذا كثيرة ، وما زال أثره سائدا في مجتمعاتنا ، وميادينه : الصورة والحركة والقول والفعل ، ومن ذلك التفاؤل والتشاؤم والعد ، وما الى ذلك .

7 - راجع : D, Eissfeldt Der Maschal in aiten, Zestments,

Beieffe zur zat . W, xxiv Gissen . 1913 .

وراجع أيضا : مج 3 - ص : 461 من :

Encyclpédie de L Islam . 2em edition . Lyde .

8 - رودولف زلهام - الأمثال العربية القديمة - مرجع سابق - ص : 22 .
9 - الأمثال في النثر العربي القديم - مرجع سابق - ص : 6 . ويختلف عنه رودولف زلهام في كتابه المذكور في كلمة : (مثل) في اللغات السامية بالأحرف اللاتينية ضمن النص التالي : (الأصل السامي لهذه الكلمة في العربية (مثل) ، وفي العبرية Masal وفي الآرامية : Matla وفي الحبشية : Mesel وفي الأكادية : Meslum ، ثم لا يختلف عن ذلك في مدلولها الذي يعني المماثلة ، والمشا به . راجع : رودولف زلهام الأمثال العربية القديمة - ص : 21 .

10 - الزمخشري - المستقصى في أمثال العرب - مج : 1 - دار الكتب العلمية - بيروت - ص هـ .

11 - يلاحظ أن الكتب العربية لم تتناول نشوء المفردة في اللغة العربية ، بل اكتفت بشرحها وتحليل ما تدل عليه ، وكأنها بذلك كلمة عربية غير شائعة معروفة لاتحتاج الى معرفة أصولها .

- 12 - عبد المجيد عابدين - الأمثال العربية في النثر العربي القديم - مرجع سابق - ص : 8 .
- 13 - المرجع السابق - ص : 10 . وخير صورة لهذه الأمثال والألغاز ما يرد على لسان الكهنة العرب في العصر الجاهلي . راجع : الجاحظ - البيان والتبيين - مج 1 : - وورد المثل مقترنا باللغز في سفر (حزقيال) الإصحاح السابع عشر 1-10 . انظر الكتاب المقدس ، وجاء فيه أيضاً : (المثل واللغز أقوال الحكماء وغوامضهم) . 1 - 6 .
- 14 - راجع : أنيس فريحة - أحيقار حكيم الشرق الأدنى في القديم - كلية العلوم والآداب ، جامعة بيروت الأمريكية - بيروت - 1962 .
- 15 - جاء في سفر الأمثال الإصحاح الأول 1-7 إشارة إلى أن المثل : (أدب يدركه العظماء ولا يعيه الجاهلون) . راجع الكتاب المقدس السفر المذكور
- 16 - عبد المجيد عابدين - الأمثال في النثر العربي القديم - مرجع سابق - ص : 11 .
- 17 - المرجع السابق - ص : 11 .
- 18 - المرجع السابق - ص : 11 .
- 19 - المرجع السابق - ص : 11 .
- 20 - المرجع السابق - ص : 12 .
- 21 - الكتاب المقدس - سفر الملوك - الإصحاح الرابع .
- 22 - المصدر السابق - المزمور التاسع والأربعون . 1-5 .